٦٦ سراج الدين البلقيني مجدد القرن الثامن

سراج الدين البلقينى عالم وفقيه. . اختلف المؤرخون والعلماء فى أمر تجديده فى الإسلام وتساءلوا: هل هو بالفعل أحد المجددين فى القرن الثامن الهجرى أم أنه غير ذلك؟

فللتجديد فى الإسلام شروط ومواصفات اصطلح عليها علماء الدين وفقهاؤه، فى مقدمتها ألا يُقصد بالتجديد فرقة دون فرقة، أو مذهب دون آخر. . بل يهدف القائل بالتجديد إلى خير المسلمين، كما يقصد أن ينهض بهم جميعاً، ليجمع بينهم على غايته من التجديد، ويجعل كلمتهم واحدة فيما يقصده من النهوض بهم، ولايصح أن يكون لمذهب المجدد فى الدين أثر فى غايته من التجديد ولا فيما يرمى إليه من النهوض بالمسلمين.

ولذلك رأى العلماء والفقهاء أن مَنْ تصير غايته هى التجديد بهذه المعانى جميعها لا يضره بعد هذا أن يكون سُنياً، أو شيعياً، أو غير ذلك من فِرَق المسلمين. لأنه فى دعوته إلى التجديد ـ إنْ كان جادًا وصادقاً ـ ينسى مذهبه الدينى ولا ينظر إلا إلى أنه مسلم لا غير.

ولذلك أيضاً اقتصرت صفة التجديد فى الإسلام على الندرة من العلماء فى القرن الواحد. فربما لا يزيد عدد المجددين فى الإسلام فى القرن الواحد عن عدد أصابع اليد الواحدة، وربما يكون واحدًا فحسب من علماء كثيرين فى القرن الواحد، التمس فيه الجميع أنه هو وحده الذى يجدد فى أمر دينه بما ينفع المسلمين ويفيدهم.

ويناقش الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه «المجددون فى الإسلام» مسألة أحقية البلقينى بلقب المجدد فيقول: «ولا يذكر من ذهب إلى أن البلقينى كان مجددَ القرن الثامن إلاَّ أنه بلغ رُتبة الاجتهاد، وكان له ترجيحات فى مذهب الشافعى خلاف ما رجحه النووى، واختيارات خارجة عن هذا المذهب، ومنْ هذا أنه أفتى بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة، وقال إنه خارج عن المذهب الشافعى. وقد قيل: إن ثلاثة من العلماء ـ العراقى، والبلقينى وابن الملقن ـ كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس القرن الثامن الهجرى: العراقى فى معرفة الحديث وفنونه، والبلقينى فى التوسع فى معرفة مذهب الشافعى، وابن الملقن فى كثرة التصانيف».

ويستطرد الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى مناقشة هذا الأمر حتى يقول: «والحقيقة أن مثل البلقينى لا يصح أن يكون مجددًا، لأن أمره لا يتجاوز التوسع فى معرفة مذهب الشافعى. وإذا كان له فيه ترجيحات تخالف ترجيحات النووى فإنها لا تقربه من ذلك، كما لم تقرب النووى من رتبة التجديد فى ترجيحاته. لأن كلاً منهما كان يرجح فى دائرة تقليده لمذهب الشافعى، فلا تبلغ به أن يكون مجتهداً أو مجدداً.

ويؤكد الشيخ عبد المتعال الصعيدى على رأيه هذا قائلا: «كذلك، إن اختيارات البلقينى الخارجة عن المذهب الشافعى لا تبلغ به أن يكون مجتهداً أو مجدداً، لأنها كانت مثل فتاويه بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة، وإزالة المنكرات، وإبطال المكوس والحانات».

ولكن على الرغم من أن الشيخ عبد المتعال الصعيدى رأى ذلك فإنه يعتبر البلقينى أحد مجددى القرن الثامن الهجرى فى كتابة المجددون فى الإسلام. . ولعل الشيخ الصعيدى ـ وهو من كبار علماء الأزهر ـ قد اعتبره من المجددين فى الإسلام ـ برغم ما يرى ـ تأثراً بما ذكره السيوطى بكتابه «حُسن المحاضرة» حيث يقول ـ أى السيوطى ـ عن البلقينى: «سمعت ولده ـ أى ولد البلقينى ـ يقول: ذكر الشيخ كمال الدين الدميرى أن بعض الأولياء قال له: إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها بُدِئت بِعُمَر، وخُتِمت بعمر. يعنى عمر ابن عبد العزيز، وعمر البلقينى».

ويقول السيوطى أيضاً: «ومن اللطائف أن شطر المبعوثين على رءُوس القرون الماضية مصريون: عمر بن عبد العزيز فى الأولى، والشافعى فى الثانية، وابن دقيق العيد فى السابعة، والبلقينى فى الثامنة.. وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة عام التاسعة من أهل مصر».

وعلى أى حال يمكن اعتبار البلقينى من مجددى القرن الثامن الهجرى إتفاقاً مع ما جاء فى كتاب «المجددون فى الإسلام» للشيخ عبد المتعال الصعيدى، أو كتاب «حُسن المحاضرة» للسيوطى وغيرهما من كتب للعلماء والمؤرخين.

يبقى التعرف على البلقينى نفسه، حيث تطالعنا لوحة حياته فتذكر أن سراج الدين البلقينى هو عمر بن رسلان بن نصير البلقينى.

ولد بقرية بلقينة عام ٧٢٤ هـ التابعة لمحافظة الغربية الآن، وحفظ القرآن وصلى به وهو لم يزل طفلاً فى السابعة من عمره، وأتبع ذلك بحفظ الكثير من المتون الخاصة بالنحو والفقه والتفسير.

جاء به أبوه إلى القاهرة وهو فى الثانية عشرة من عمره، وجعله يعرض ما يحفظه من القرآن والحديث، وما يعرفه من الفقه والنحو والتفسير على جماعة من علمائها، فبهرهم بذكائه، وكثرة محفوظه، وسرعة فهمه، إلى درجة أن هؤلاء العلماء طلبوا من والده أن يظل ابنه فى القاهرة حيث العلماء والفقهاء حتى ينمى استعداده للعلم.

واستقرت أسرة البلقينى فى القاهرة، وأخذ ابنها عمر ينهل العلم من علمائها. فتلقى الفقه على الشيخ السبكى، والنحو على أبى حيان، والحديث على ابن القماح. وظل على هذه الحال حتى إذا نال قدرًا من العلوم والمعارف اشتغل بالتدريس.

وفى التدريس برع فى الفقه والحديث والأصول وما إليها من العلوم الدينية والعربية، وكان فيها جميعاً من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم تشاهده حلقات التدريس من قبل. حتى اشتهر اسمه، وذاع صيته، حيث اجتمع فى دروسه فقهاء المذاهب الأربعة برغم أنه كان أحفظ الناس لمذهب الإمام الشافعى. وكان يتكلم

فى الحديث الواحد من بكرة النهار إلى ما بعد الظهر، وأحياناً يصلى بالحاضرين العصر والبقلينى لم يفرغ بعد من حديثه.

وكان من العلم والفضل بحيث أُخْتِيرَ لقضاء الشام خلفاً للسبكى وباشر هذا العمل ما يقرب من السنة، وفيها أنصفه بعض العلماء كابن كثير الذى قال عنه: «أذكرتنا بسمت ابن تيميه». وكابن شيخ الجبل الذى قال له: «ما رأيت بعد ابن تيميه أحفظ منك للحديث..».

ثم عاد البلقينى إلى مصر ليتولى فيها منصب قاضى قضاتها، وليظل بعد ذلك فى هذا المنصب سنوات، حتى حين يتركه يظل متقدماً على قضاة مصر، لأن كثيراً منهم إمّا كان من تلاميذه المباشرين، وإما من التلاميذ غير المباشرين الذين أخذوا العلم عن طريق المباشرين.

وإلى جانب علمه وفضله الذى شهد له بهما علماء مصر والشام اشتهر بين الناس بالإيمان والتقوى، فكان نموذجاً وحده لرجل العلم والدين. واستمر على هذا الحال، يعظ ويفتى، ويجتهد، ويجدد، ومن قبل يعلم ويثقف، حتى كانت وفاته عام ٨٠٥. ليضمه تراب مصر التى أنجبته.

* * *